



إعداد:

رياض عيدروس عبد اللّه

(٢٠٠٨م)

مراجعة:

د. قسطاس إبراهيم النعيمي

مقدمة[1]:

من القضايا التي ظهر فيها الجدل في القرون المتأخرة قضية نشأة الكون؛ وهل للكون بداية؟ وإذا كان للكون بداية، كيف ومتى حصلت؟ ومَن أنشأ هذه البداية؟

ومَنْشَأُ هذا الجدل هو النظرة القاصرة للحياة المادية التي أوصلت البعض إلى الإلحاد وعدم التصديق إلا بالأشياء المحسوسة، حتى أتى علم الفلك الحديث ليقدم الدليل المادي لنشأة الكون، وليحسم هذه المسألة من خلال الإجابة على بعض تلك التساؤلات؟.. في نظرية علمية سنتطرق لدراستها في هذا البحث.

ونحن المسلمون نؤمن بأن الخالق –سبحانه وتعالى– هو خالق كل شيء، والوكيل عليه، وقد خرج هذا الكون إلى الوجود بكلمة واحدة هي **(كُنْ)** قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

ومعنى **الإبداع والفطر** للسماوات والأرض في الآيات السابقة أي: الابتِداءُ والاختراع لا عَلى مثالٍ سابق[6]، أو إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة[7].

كما أشارت السنة إلى هذا الأمر في الحديث الذي رواه البخاري عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي

---

(١) أجريت بعض التعديلات على البحث عام ٢٠١٤م، ثم في ٢٠١٦م [الباحث].

(٢) البقرة:١١٧.

(٣) القمر:٥٠.

(٤) إبراهيم:١٠.

(٥) فاطر:١.

(٦) مختار الصحاح، ١/٢٤١، تاج العروس، ١/ ٣٣٤٧.

(٧) كتاب العين، ٢/٤.

تَمِيمٍ قَالُوا بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ قَالُوا: قَبِلْنَا، جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ قَالَ: "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ"[١].

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول: "كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ"[٢].

هذه الأخبار الواضحة البينة عن خلق الكون وتقدير السنن المنظمة له تدل على أن الكون محدث في لحظة زمنية معينة هي لحظة صدور الأمر الإلهي (**كُنْ**) كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣].

والله عز وجلَّ أمرنا أن نأخذ بالأسباب والوسائل المادية المشروعة التي توصلنا لمعرفة بعض السنن الكونية، وأسرار الخليقة، ومن ذلك السير في الأرض لمعرفة كيفية بدء الخلق قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤]، وسخر سبحانه وتعالى لهذا الإنسان الوسائل التي من خلالها يستطيع معرفة بعض الإشارات الكونية، والتي قد تدله على بعض التفاصيل في نشأة هذا الكون.

فتق السماوات والأرض:

يخبرنا القرآن الكريم عن أمر غيبي في قضية الخلق، وهو أن الأرض كانت جزءً من السماء، وأنهما كانتا أصلاً واحداً، ففصل الله بينهما، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٥].

---

(١) صحيح البخاري، ٢٢ /٤٢٨.

(٢) صحيح مسلم، ١٣/١١٧.

(٣) يس:٨٢.

(٤) العنكبوت:٢٠.

(٥) الأنبياء:٣٠.

فلننظر في المعاني اللغوية للآية الكريمة، مع فهم المفسرين لهذا الأمر.

المعاني اللغوية لألفاظ الآية:

أولاً: الرتق: رتق: الرَّتْقُ إلحام الفتق وإصلاحه[1]، والرَّتْقُ: ضدّ الفَتْق، وقد رَتَق الفَتْقَ فارْتَتَقَ، أي: الْتَأَم[2].

ثانياً: الفتق، يقال فَتَقَ الشيءَ شَقَّه[3]، والفتق: هو الفَصْلُ بين المتّصِلين[4]، وفَتَقْت الثَّوْبَ فَتْقًا، مِنْ بَابِ قَتَلَ، نَقَضْتُ خِيَاطَتَهُ حَتَّى فَصَلْتُ بَعْضَهُ مِنْ بَعْضٍ فَانْفَتَقَ[5].

فهم المفسرين للآية:

تعددت آراء المفسرين في فهم هذه الآية الكريمة، حيث نقل المفسرون أقوالاً كثيرة في معناها نجملها في الآتي:

١- «**كانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما**» كما روي عن ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة[6]، وسعيد بن جبير[7]، وعطاء، وكعب[8].

٢- «**كانت السموات مؤتلفة طبقة ففتقها الله فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرضين كانت مرتقة طبقة واحدة، ففتقها فجعلها سبعاً**»، عن مجاهد، وأبي صالح، والسدي[9].

٣- «**كانت السماء رتقاً لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت، ففتقت الأرض بالنبات، والسماء بالمطر**»، رواية عن ابن عباس[10]، وعكرمة، وعطية، وابن زيد[11]، واختاره ابن جرير معللاً ذلك بدلالة قوله تعالى بعده ﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ

(١) العين، ٣٩٢/١.
(٢) مختار الصحاح، ١١٤/١.
(٣) مختار الصحاح، ٢٣٣/١.
(٤) تاج العروس، ١/ ٦٥٣٥.
(٥) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ١١٩/٧.
(٦) الطبري، ١٨/١٠، والدر المنثور ٦٢٦/٥.
(٧) الدر المنثور، ٦٢٦/٥.
(٨) البغوي، ٢٩٣/٤، والقرطبي ٢٨٣/١١ .
(٩) الطبري، ١٩,١٨/١٠، والدر المنثور، ٦٢٦/٥.
(١٠) الدر المنثور، ٦٢٥/٥.
(١١) الطبري، ١٩/١٠.

﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، ونسبه النيسابوري لكثير من المفسرين[2]، ونسبه أبو السعود لأكثرهم[3].

٤- «**كانتا ملتصقتين ففصلهما فجعل السموات سبعاً والأرضين كذلك، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض**»، قاله ابن كثير[4].

٥- «**كانتا رتقاً ففتقناهما بالنور، لأن الليل قبل النهار**» رواية عن ابن عباس[5].

٦- **الرتق: حالة العدم، والفتق: الإيجاد**، كقوله تعالى: ﴿فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[6]، والفطر: الشق، قاله أبو مسلم الأصفهاني[7].

٧- **الرتق: انطباق منطقتي الحركتين الأولى والثانية الموجب لبطلان العمارات وفصول السنة، والفتق: افتراقهما المقتضي لإمكان العمارة ولتغيير الفصول**، نقله النيسابوري عن بعض علماء الإسلام وقال: فيه بُعد[8].

محاولة الإنسان لمعرفة بدء الخلق:

حاول الإنسان منذُ القِدم معرفة أسرار النشأة الأولى للكون، وعجز عن التوصل إلى نتيجة تمكنه من معرفة هذه البداية، فظلَّ الناس يتخبطون في النظريات والاستنباطات العقلية المحضة، ونتيجة لحصيلة جهد الإنسان عبر آلاف السنين، تطورت المعارف والعلوم والتقنيات والوسائل التي ابتكرها الإنسان حتى وصل إلى مرحلة يمكن فيها التدليل على نظريات العلم التي أثبتت التجارب والأرصاد الفلكية صحة بعضها، أو جزء منها على الأقل، بل يمكن أن تحل نظرية محلَّ أخرى تصحيحاً لها واستكمالاً لمحتواها..

وقد برزت في علم الكونيات نظريتان:

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ١٧/٥.

(٣) أبو السعود، ٦٥/٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ١٧٧/٣.

(٥) الطبري، ١٩/١٠، والدر المنثور، ٦٢٥/٥ – ٦٢٦.

(٦) الأنعام: ٧٩.

(٧) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ١٧/٥.

(٨) المرجع السابق.

النظرية الأولى: نظرية الكون الأزلي:

تفترض أن الكون موجوداً منذ الأزل وإنّ تشتت المادة الناجم عن التمدد المرصود للكون يعوض بالخلق المستمر لمادته[(١)].

النظرية الثانية: نظرية الانفجار العظيم:

تفترض أن الكون بدأ انطلاقاً من حالة ابتدائية حرارتها وكثافتها من الشدة بحيث لم تسمحا بوجود أي شيء خلا الإشعاع والجسيمات الأولية، وبعد ذلك تمدد الكون وتبرد مخلفاً النجوم والمجرات[(٢)].

وهذه النظرية هي التي سادت لاعتمادها على أدلة علمية، ولنتطرق إلى شيء من التفصيل حول هاتين النظريتين.

النظرية الأولى: نظرية الكون الأزلي[(٣)]:

من الذي روج لنظرية الكون الأزلي؟

هذه النظرية تتلاءم مع فكرة **"سرمدية الوجود"**، وتتطابق مع الأفكار الأوربية المقتبسة من الفلسفة المادية، وهذه الفلسفة نمت وتقدمت أصلاً في العالم الإغريقي القديم، وتضمنت أن المادة كانت الشيء الوحيد الموجود في الكون، وأن الكون وجد في الزمن اللانهائي، وسوف يبقى إلى الأبد.

هذه الفلسفة عاشت في أشكال مختلفة خلال الأزمنة الرومانية، ثم بدأت تجد قبولاً واسعاً بين علماء أوروبا ومثقفيها، وكان سبب ذلك الاتساع هو الحب الشديد للفلسفة الإغريقية القديمة.

وفي عصر النهضة الأوربية تزعم بعض الفلاسفة نشر مزاعم المادية ودافعوا عنها، وأعلنوا أن الكون سرمدي وموجود في كل الأزمان.

ومع بداية القرن التاسع عشر صارت فكرة أزلية الكون وعدم وجود لحظة ما لبدايته مقبولة بشكل واسع، وتم نقل تلك الفكرة إلى القرن العشرين من خلال أعمال الماديين

---

(١) علم الإيمان للشيخ عبدالمجيد الزنداني، ٣/٢٠٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) وضع أساس هذه النظرية ثلاثة من كبار علماء الفلك يعملون في جامعة كامبردج بلندن، وهم (فريد هويل، وهيرمان بوندي، وتوم غولد)، انظر: الموسوعة الكونية الكبرى، د. ماهر أحمد الصوفي، ٢/٥٧.

الجدليين من أمثال (كارل ماركس) و(فريدريك أنجلز)، وتتلاءم هذه الفكرة عن الكون اللامتناهي تماماً مع الإلحاد، وليس من الصعب معرفة السبب؛ لأن فكرة أن للكون بداية تقتضي أنه مخلوق، وطبعاً هذا يتطلب الإقرار بوجود خالق وهو الله، لذلك كان من المريح جداً وأكثر سلامة بأن يدار العرض بطريقة خادعة فتوضع أولاً فكرة أن "الكون موجود سرمدي"؛ حتى ولو لم يكن هناك قاعدة علمية لتأكيد تلك الفكرة(١).

تصريح أحد الماديين:

يقول (**بولتزر**) –وهو من أنصار فكرة الكون السرمدي– في كتابه: "المبادئ الأساسية في الفلسفة": «**الكون ليس شيئاً مخلوقاً، فإذا كان كذلك فهذا يقتضي أنه خلق في لحظة ما من قبل إله، وبالتالي ظهر إلى الوجود من لا شيء، ولقبول الخلق يجب على الإنسان أن يقبل في المقام الأول أنه كانت توجد لحظة لم يكن فيها الكون موجوداً، ثم انبثق شيء من العدم، وهذا أمر لا يمكن للعلم أن يقبل به**»(٢).

ويظن هذا الملحد أن العلم يدعم فكرته وذلك بقوله: «وهذا أمر لا يمكن للعلم أن يقبل به»، مع أن كلامه لا يقوم على أي أساس علمي، بل إن العلم ينقض فكرتَه، فلم يمضِ زمن طويل حتى أثبت العلمُ ما كان يستبعده هذا الكاتب، ونحن نعلم أن الذي دفعه لهذا الرأي هو أن الماديين لا يعتقدون أن للوجود خالقاً، بل يقولون بأن كل ما في الوجود أزلي صادر عن المادة، والنواميس الطبيعية نشأت على سبيل الصدف والاتفاق، وبلغت من الكمال والارتقاء عن طريق التطورات المتعاقبة، وهذا هو عين الإلحاد(٣).

وقد تقدم العلم في أبحاثه وأقام الدليل المادي لنشأة الكون، وهذا ما سنعرفه في نظرية الانفجار العظيم.

---

(١) من بحث: خلق الكون من العدم والانفجار الكوني الكبير لهارون يحي بتصرف واختصار، نقلاً عن موقع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) لفراس نور الحق على الرابط http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=99&select_page=12

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) انظر: الإيمان بالله و الدلائل العلمية على وجود الله– عفيف عبد الفتاح طبارة (برنامج موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية).

النظرية الثانية: نظرية الانفجار العظيم (Big bang)

الدراسات الفلكية تشير إلى أن للكون بداية:

من الأمور المتفق عليها أن كل شيء له علةٌ توجده، أو صانعٌ يصنعه، فإذا نظر الإنسان إلى الكون واستعرض ما فيه من كائنات حصل له علم ضروري بأن هذه الكائنات لم توجد صدفة، بل لابد لها من موجد أوجدها، وهذه الفطرة السليمة هي التي فطر اللهُ الناسَ عليها.

ويعتبر مجال الخلق، وإفنائه، وإعادة خلقه، من المجالات الغيبية التي لا يستطيع الإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح بغير هداية ربانية، ومن هنا فإن العلوم التجريبية لا يمكن لها أن تتجاوز في تلك المجالات مرحلة التنظير، بمعنى: وضع نظرية من النظريات، أو اقتراح فرض من الفروض لا غير[١].

وقد تقدم علم الفلك الحديث تقدماً كبيراً في هذا الجانب، وقدم الدليل المادي لنشأة الكون، وأجاب على بعض التساؤلات حول الكيفية التي بدأ بها الكون ؟.

الدراسات الفلكية:

– **١٩١٧**م: قام **(ألبرت آينشتاين)** بوضع نموذج للكون متوافق مع نظريته النسبية، وكان نموذجه معتمداً على الشكل الكروي، وقرّر بأن الكون ثابت منذ أن وُجد ولا يزال كذلك وسيبقى على ما هو عليه، ومن أجل تحقيق هذا الهدف وضع ثابتاً كونياً سمّاه "ثابت آينشتاين".

– **١٩٢٢**م: كشف الفيزيائي الروسي **(ألكسندر فريدمان)** حسابات بَيَّن فيها أن تركيب الكون ليس ساكناً، وأن أصغر اندفاع فيه ربما كان كافياً ليسبب تمدد التركيب بأكمله أو لتقلصه وذلك طبقاً لنظرية أينشتاين في النسبية، وكان **(جورج لوميتز)** أول من أدرك أهمية الأعمال التي كان فريدمان يقوم بها، وبناء على تلك الحسابات أعلن الفلكي البلجيكي "لومتيز" أن للكون بداية، وأنه في تمدد متواصل، وصرَّح أيضاً أن معدل الإشعاع يمكن استخدامه كمقياس عقب حدوث ذلك الشيء.

ولم تحضَ التأملات النظرية لهذين العالمين باهتمام يذكر في ذلك الحين[٢].

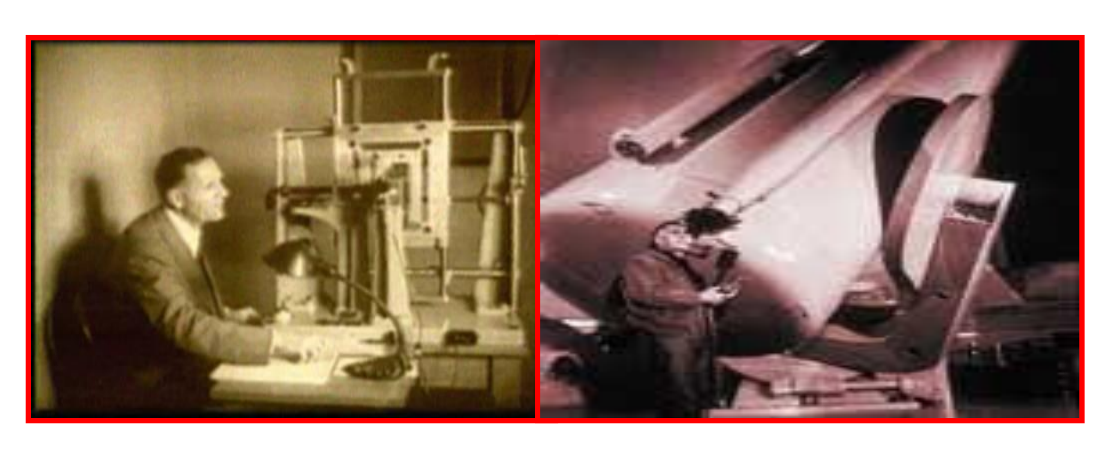
(١) الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية بقلم الدكتور: زغلول النجار جريدة الأهرام القاهرية ٢/٧/٢٠٠١م.

(٢) انظر: خلق الكون من العدم والانفجار الكوني الكبير لهارون يحي http://www.55a.net

– **١٩٢٩**م: توصل الفلكي الأمريكي **(أدون هابل)** الذي يعمل في مرصد جبل ويلسون في كاليفورنيا إلى واحد من أعظم الاكتشافات في تاريخ علم الفلك، حيث اكتشف هابل أن كل هذه الملايين المؤلفة من المجرات في ابتعاد مستمر عن بعضها بسرعات هائلة قد تصل في بعض الأحيان إلى كسور من سرعة الضوء، وكذلك بالنسبة لنا فكل المجرات التي نراها حولنا –ما عدا الأندروميدا وبعض المجرات الأخرى القريبة– في ابتعاد مستمر عنا وكان لهذا الاكتشاف وقع الصاعقة في دنيا العلم[(١)].

فبعد رصد لعدد من النجوم من خلال تلسكوبه العملاق اكتشف أن ضوئها كان منحرفاً نحو الطيف الأحمر وبشكل حاسم، وأن ذلك الانحراف كان مرتبطاً مباشرة مع بعد النجوم عن الأرض، وهذا الاكتشاف هزَّ قواعد المفهوم الذي كان شائعاً للكون.

وهكذا تحققت استنتاجات "فريدمان ولوميتز"، ولقد صدم أينشتاين ذاته باكتشافاته فأضاف ثابتاً كونياً لمعادلاته لكي يجعل إجاباتها الناتجة عنها صحيحة، لأن الفلكيين أكدوا له أن الكون ثابت وأنه لا توجد طريقة أخرى لجعل معادلاته تتطابق مع مثل ذلك النموذج، وبعد سنوات اعترف أينشتاين أن ذلك الثابت الكوني الذي أضافه كان أكبر خطأ ارتكبه في أعماله[(٢)].



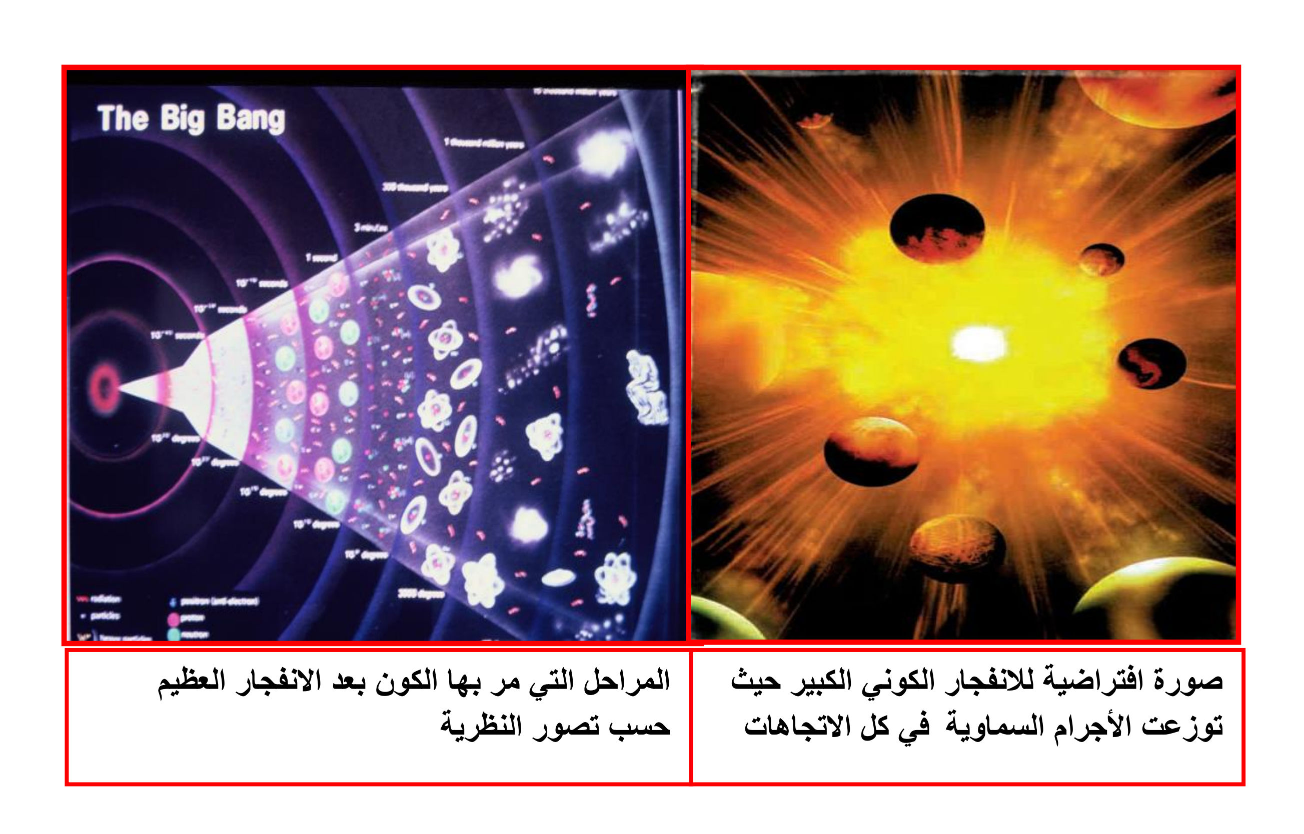
ونفهم من هذه النظرية أنه إذا كان الكون اليوم يتباعد فلابد أنه كان في يوم ما متقارباً، لكن متقارباً إلى أي حد؟ تخيل هذه المجرات وهي تسير في الاتجاه المعاكس، تخيلها وهي تجري مقترباً بعضها من بعض، ربما تتصور أنها ستكون كلها قطعة واحدة مساوية في حجمها

(١) "آيات قرآنية في مشكاة العلم " د . يحيى المحجري موقع مكنون الإعجاز العلمي:
http://www.maknoon.com/e3jaz/new_page_6.htm

(٢) خلق الكون من العدم والانفجار الكوني الكبير لهارون يحي: http://www.55a.net

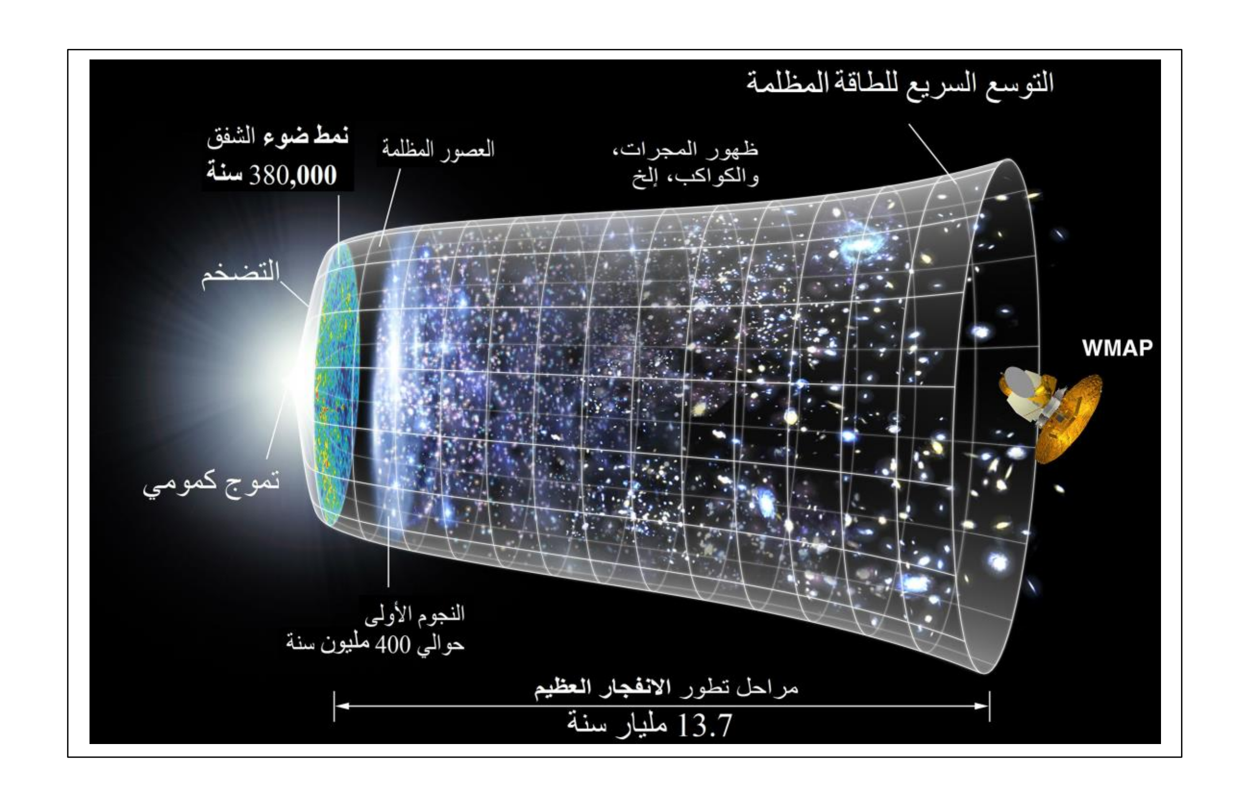
لمجموع أحجام المجرات المكونة لها، كما أنك إذا بنيت حائطاً من مجموعة من اللبنات فإن حجمه سيكون مساوياً لحجم مجموع اللبنات المكونة له.

لكن الفيزيائيين سيقولون لك: كلا، فإنها كلما اقتربت وتضامت ازدادت كتلتها فازدادت شدة جاذبيتها، وكلما ازدادت قوة الجاذبية ازداد التلاصق، حتى تتلاشى الفراغات بين النجوم المكونة للمجرات، ثم يزداد ضغط الجاذبية على النجوم نفسها، وهكذا يستمر الضغط حتى تكون كل المادة المكونة للكون في حجم الذرة، ثم يستمر الضغط إلى مالا نهاية له، فيقل الحجم إلى مالا نهاية له، أي حتى يصير لا شيء[١].



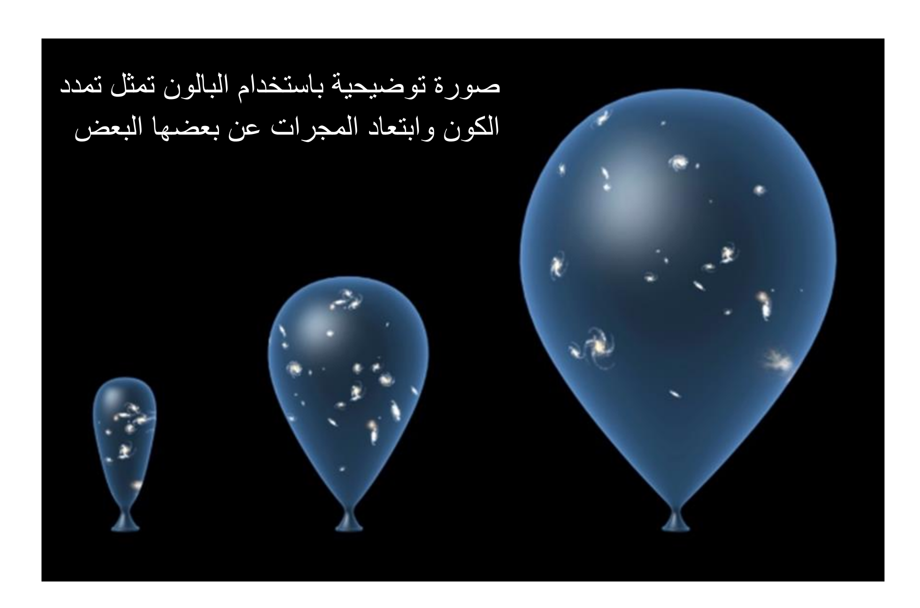
صورة افتراضية للانفجار الكوني الكبير حيث توزعت الأجرام السماوية في كل الاتجاهات	المراحل التي مر بها الكون بعد الانفجار العظيم حسب تصور النظرية

(١) من كتاب الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين- أ.د. جعفر شيخ إدريس صـ٨٧.



ويذكر بعض الباحثين أدلة علمية على صحة نظرية الضربة الكونية الكبرى (Big bang) لنشأة الكون نذكر بعضاً منها باختصار:

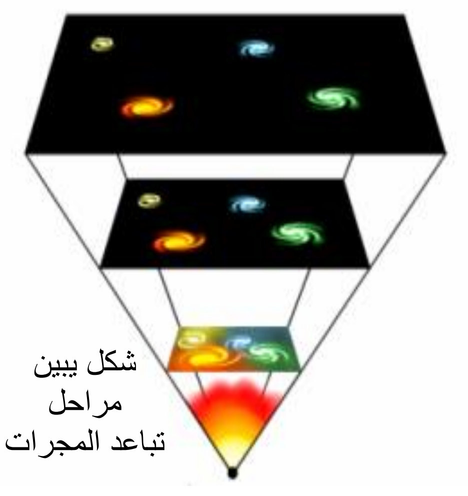
١- حركة التباعد المجرية الظاهرة التي أعلنها عالم الفلك الأمريكي هابل عام ١٩٢٩م، بأن المجرات تبتعد عنا بسرعة في جميع الاتجاهات[١].

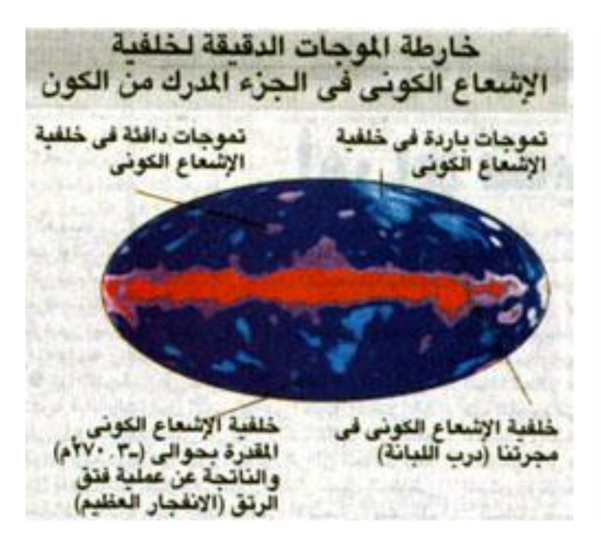


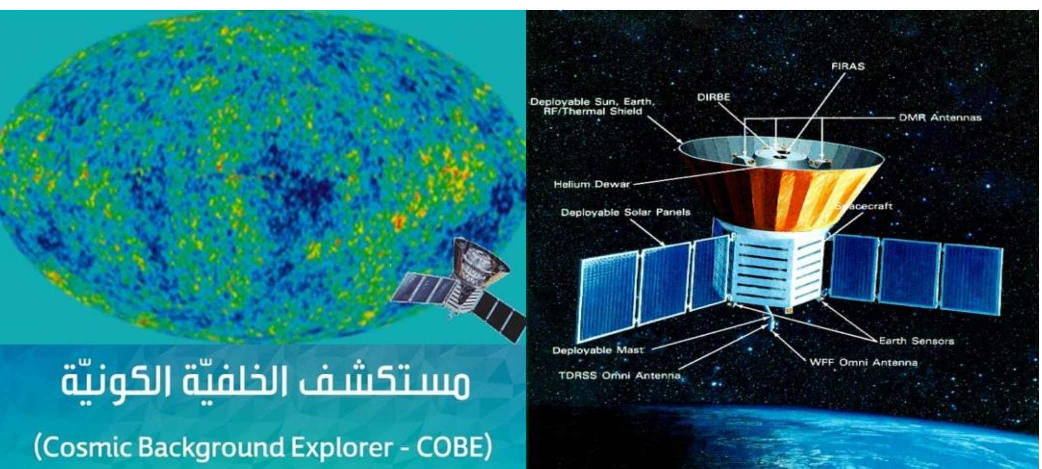
(١) زغلول النجار http://www.elnaggarzr.com/index.php?l=ar&id=652&p=2&cat=21

٢- اكتشاف الخلفية الإشعاعية للكون المدرك في سنة **١٩٦٥م**، على هيئة إشارات راديوية منتظمة وسوية الخواص، قادمة من كافة الاتجاهات في السماء، وفي كل الأوقات دون أدنى توقف أو تغير، ولم يتمكنوا من تفسير تلك الإشارات الراديوية المنتظمة السوية الخواص، إلا بأنها بقية للإشعاع الذي نتج عن عملية الانفجار الكوني العظيم.

وفي سنة١٩٨٩م أرسلت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا (NASA) مركبة فضائية باسم مستكشف الخلفية الكونية، وذلك لدراسة الخلفية الإشعاعية للكون من ارتفاع يبلغ ستمائة كيلو متر حول الأرض، وقد أثبتت هذه الدراسة تجانس مادة الكون وتساويها التام في الخواص قبل الانفجار وبعده، أي من اللحظة الأولى لعملية الانفجار الكوني العظيم، وانتشار الإشعاع في كل من المكان والزمان[١].

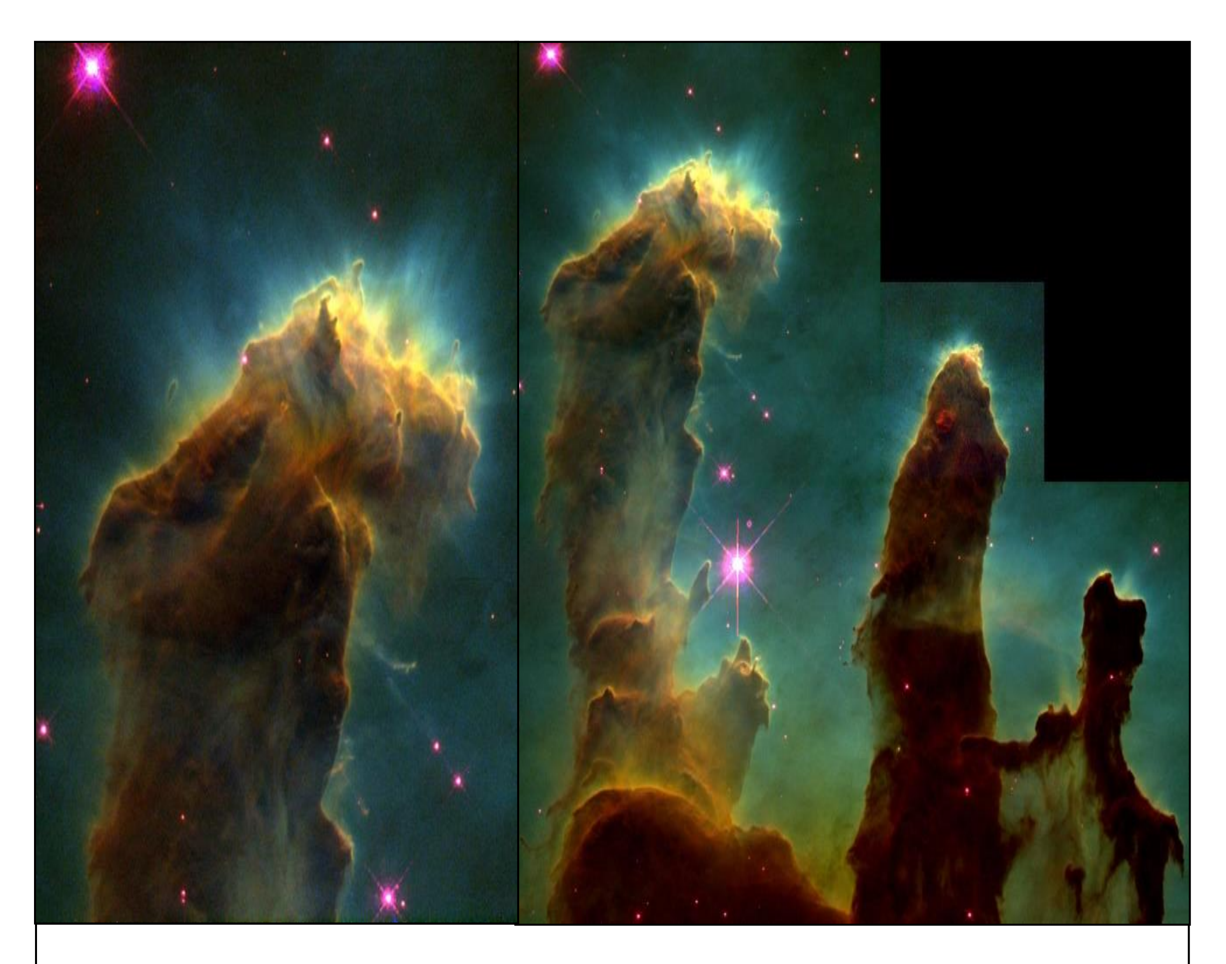

شكل يبين مراحل تباعد المجرات





(١) انظر: موضوع صدى الانفجار العظيم أقدم حفرية في الكون- علي حسين عبد الله، مجلة العربي الكويتية (العدد:٥٦٧)، ٢٠٠٦/٢/١م.

٣- تصوير الدخان الكوني على أطراف الجزء المدرك من الكون: كذلك قامت تلك المركبة الفضائية بتصوير بقايا الدخان الكوني الناتج عن عملية الانفجار العظيم على أطراف الجزء المدرك من الكون (على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية)، وأثبتت أنها حالة دخانية معتمة سادت الكون قبل خلق السماوات والأرض[١].



صورة للدخان الكوني وقد شوهد تخلق نجوم جديدة من هذا الدخان سميت هذه الأبراج الدخانية بـ(أعمدة الخلق)

٤- إعلان وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية ناسا أن عمر الكون **١٣,٧** مليار سنة ضوئية، وذلك من خلال استعمال مجسات فضائية متطورة جداً ومناظير إلكترونية محمولة على أقمار صناعية، وهذا الاكتشاف إقرار من الوكالة بأن لهذا الكون بداية[٢].

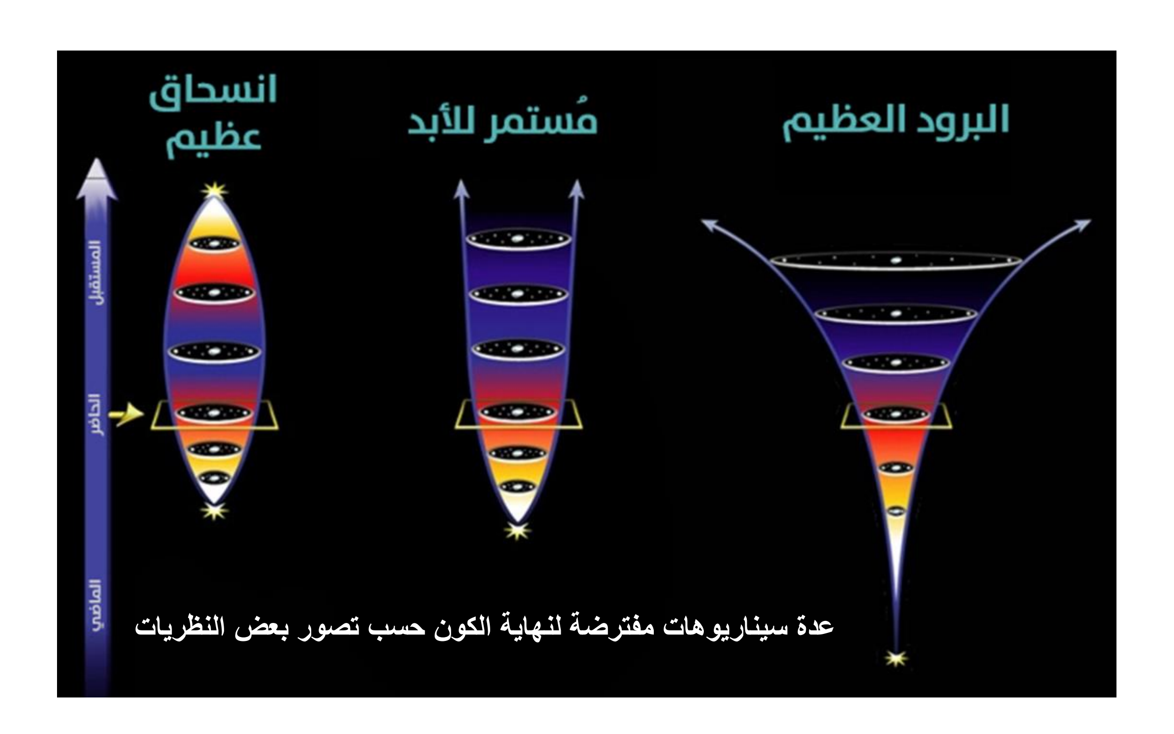
(١) الهيئة العالمية للإعجاز العلمي http://www.nooran.org/O/16/16-4.htm

(٢) نقلاً عن http://arabic.people.com.cn/200302/13/ara20030213_61163.html

٥- تبين أن العناصر التي تكون قشرة الأرض هي نفسها العناصر التي تتكون منها النجوم، والشهب، والكواكب، وذلك من خلال دراسة الأطياف الضوئية التي تصدر عن ذرات العناصر التي تكون النجوم والشهب، ومقارنتها مع الأطياف اللونية التي تصدر عن العناصر والذرات في الأرض[١].

٦- تبرد الكون (قانون الديناميكا الحرارية الثاني): الذي يقول إن الكون يستمر باستنفاد طاقته حتى يصل إلى حالة التوازن (أي تساوي درجات حرارة جميع أجزاء الكون)، حتى يصل الكون في نهاية المطاف إلى ما يسمى عند الفيزيائيين بالموت الحراري، وهذا يعني أن الكون لا يمكن أن يكون موجوداً بلا بداية، وإلا لوصل الكون إلى حالته الأخيرة من التوازن قبل زمن طويل لا حدود له[٢].

٧- يقول الفلكيون إن الكون يتوسع من الضربة الكبرى، ولا يوجد دليل بأنه سيتمدد للأبد بل إنهم يعتقدون أنه سوف يتباطأ تمدده تدريجياً ثم يقف، وبعدها ينقلب على نفسه، ويبدأ بالتراجع في حركة تقهقرية.

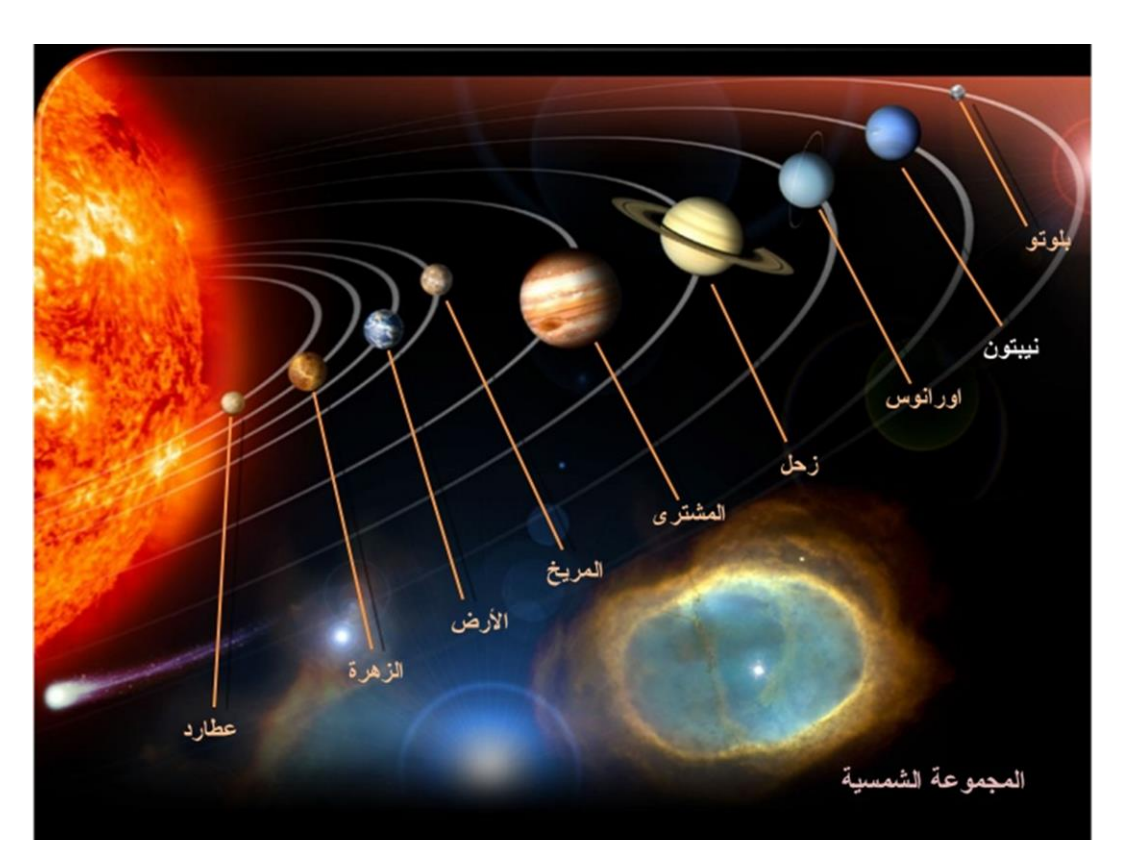


عدة سيناريوهات مفترضة لنهاية الكون حسب تصور بعض النظريات

(١) برنامج موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية.

(٢) علم الإيمان للشيخ عبدالمجيد الزنداني، ٣/٢١١.

٨- أما الأرض فبحسب تصور النظرية أنها تكونت مع باقي أفراد المنظومة الشمسية قبل حوالي ٤,٦ مليار سنة، أي بعد بداية الانفجار العظيم بعشرة مليارات من السنين؛ وذلك بناء على قياس مستوى النشاط الذريّ للعَيّنات التي أُخِذت من صخور الأرض والقمر، ومعنى هذا الأمر أن النجوم تكونت قبل الأرض حتماً[١].



خلاصة النظرية:

((الكون كان في بدء نشأته نقطة متناهية الصغر، ومتناهية الضخامة، في كتلة غازية عظيمة الكثافة واللمعان والحرارة، ثم بتأثير الضغط الهائل المتأتي من شدة حرارتها حدث انفجار عظيم فتق الكتلة الغازية، وقذف بأجزائها في كل اتجاه، فتكونت مع مرور الوقت الكواكب والنجوم والمجرّات))[٢].

---

(١) انظر: تأملات في خلق السماوات والأرض- د. مصطفى عصفور، موقع الثريا للدراسات الفلكية والعلمية، على الرابط: http://www.alfalak.org/sky&earth_creation.html

(٢) الانفجار العظيم، موقع مكنون الإعجاز العلمي http://www.maknoon.com/e3jaz

وانظر: الرابط: http://www.alkoon.alnomrosi.net/ .

اعتراف لابد منه:

وهذا اعتراف أحد الذين كانوا يدافعون عن أزلية الكون عندما واجه دليل الانفجار الكبير حيث وصف ذلك المأزق بقوله: «**في البداية كان لي موقف مع هويل**(١) **لكن عندما بدأ الدليل بالتعاظم كان يجب عليّ أن أقبل بأن المباراة انتهت، وأن نظرية الحالة الثابتة يجب أن تلغى**» (٢)، وبهذه الأدلة العلمية سقطت مزاعم الماديين؛ بل واعترف الكثير منهم بذلك ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٣).

وجه الشاهد عند الباحثين في الإعجاز العلمي:

أخبرنا القرآن كيف بدأ الكون في آية واحدة قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾(٤)، وتتضح عظمة هذه الآية الكريمة، أن الدراسات الفلكية أثبتت أن الأرض والسماء كانتا ملتصقتين ثم انفصل بعضها عن بعض -بصرف النظر عن الكيفية- وهذا ما أخبرنا به القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً، في زمن ما كان يتصور أحد أو يتخيل هذا الأمر، إلى أن يسر الله تعالى الوسائل التي مكنت البشرية من رؤية هذه الحقيقة عين اليقين؛ لتكون آية من آيات الله تعالى في الآفاق التي وعد البشرية بالكشف عنها، وتأكيداً لصدق رسالة مُحَمَّد ﷺ وأن هذا العلم الذي جاءنا به وحي من عند الله تعالى عالم الغيب والشهادة(٥).

وإذا أمعنا النظر في أقوال المفسرين سنلاحظ أن التفاوت في تفسير هذه الآية لا يصل إلى التعارض في المعنى العام، والمفهوم المستفاد منها، إذ يمكن لكثير من هذه المعاني أن تجمع

---

(١) العالم البريطاني (فريد هويل) كان من واضعي نظرية الكون الأزلي ولسنوات عديدة ظل متبنياً لنظرية الخلق المستمر، محاولاً أن يبرهن أن الكون في حالة ثابتة، وقد عارض بشدة نظرية الانفجار العظيم.

(٢) انظر: خلق الكون من العدم والانفجار الكوني الكبير لهارون يحي (موسوعة الإعجاز العلمي).

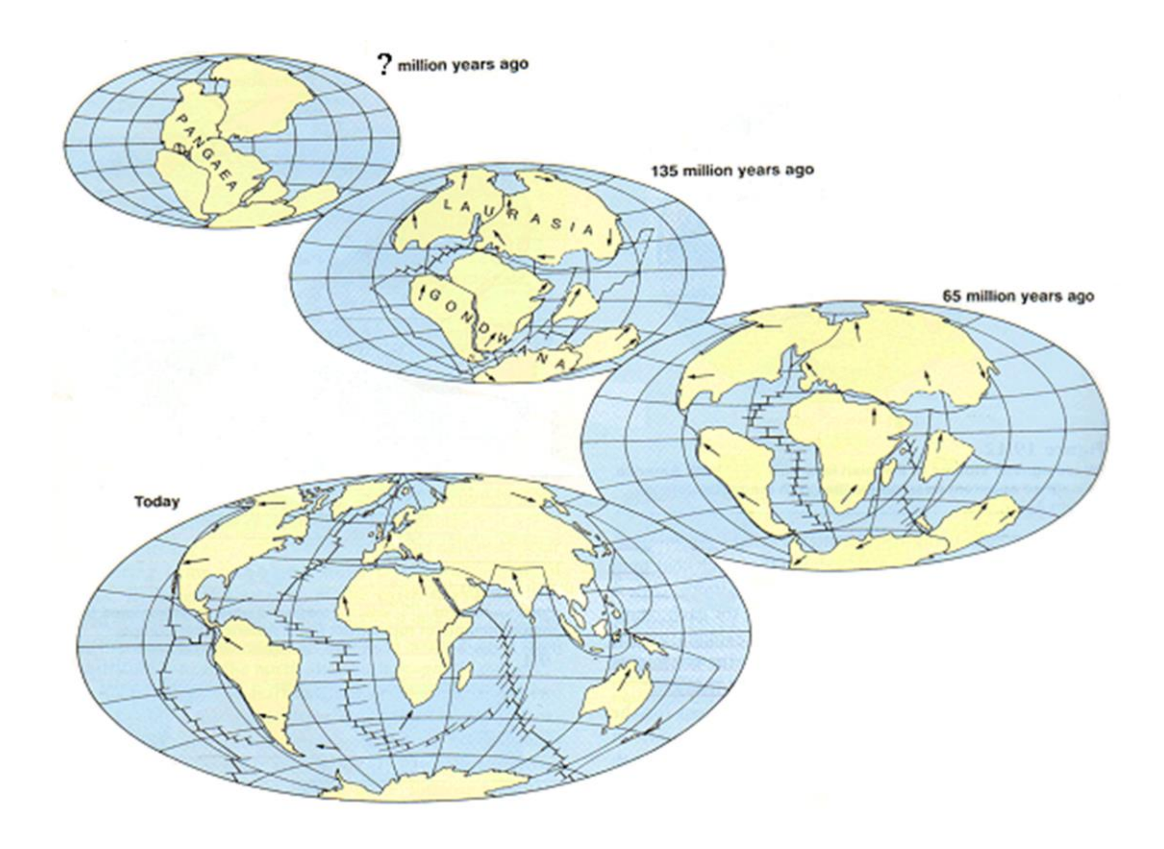
(٣) التوبة:٣٢.

(٤) الأنبياء:٣٠.

(٥) هذه وجهة نظر بعض الباحثين في الإعجاز العلمي حيث يستشهدون بها باعتبارها معجزة من معجزات القرآن الكريم التي سبق بالحديث عنها قبل المعارف البشرية، وقد بينت في البحث وجهة نظري بأن هذا مما لا ينبغي وإنما يمكن الاستفادة من النظرية في فهم الآيات دون الجزم بصحة المعنى. [الباحث].

في سياق متسلسل لبيان مراحل هذا الفتق، وأقرب هذه الأقوال للمعطيات العلمية هي الأقوال التي التزمت بظاهر اللفظ القرآني، كما هو في القول الأول، والثاني، والرابع، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة، ويقيم الحجة على الكافرين، فينكر عليهم عدم إيمانهم، ففي هذا الأمر من أدلة الإيمان ما يكفي لإقامة الحجة عليهم.

وفي هذه الآية جانب آخر من جوانب الإعجاز كما يقول الشيخ عبدالمجيد الزنداني حيث «**أنها تتسع للتعبير عن كيفيات عديدة، فالسموات والأرض كانتا رتقاً ثم انفصلتا، والسماء كانت (رتقاً) كتلة واحدة ثم انفصلت إلى سبع سموات، والأرض كانت (رتقاً) فتكونت منها سبع طبقات، واليابسة كانت قارة واحدة، ثم انفصلت إلى عدد من القارات**»[(١)].



أشكال تبين انفصال قارات الأرض عن بعضها البعض وتباعدها خلال ملايين السنين حسب تصور النظرية

(١) الإعجاز في علوم الأرض للشيخ عبدالمجيد الزنداني، ص٦٠.

تطابق النظرية مع ما جاء في القرآن الكريم:

بغض النظر عن التفاصيل التي تتضمنها هذه النظرية والتي قد لانوا فقها من تحديد عمر الكون، أو تحديد البداية بالانفجار، أو غير ذلك، فهذه لا تزال في طور النظرية وإن كان بعض علماء الفلك يعتبرها كحقيقة علمية، لكن موضوع استشهادنا بهذه النظرية هو أنها تتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم في عدة أمور وهي:

أولاً: إقرار أصحاب النظرية بعدم أزلية الكون، وأن للكون بداية بدأت من نقطة الصفر، ولو أصابوا في التعبير لقالوا من لا شيء، أي: من العدم، وهذا من البديهيات، ويتوافق مع قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

ثانياً: انفصال الأرض عن السماء بعد أن كانتا شيئاً واحداً -بغض النظر عن الكيفية- يتوافق مع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

ثالثاً: التوسع المستمر للسماء يتوافق مع قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(٣)، مع عدم تصادم هذا المعنى مع المعاني الأخرى للفظ (موسعون).

رابعاً: مرور الكون بمرحلة الدخان التي سادت الكون بعد الانفجار الكبير يتوافق مع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(٤).

خامساً: تقول النظرية إن الكون سيستنفد طاقته ويعود في النهاية إلى نقطة البدئ **(الإنكماش)** وهذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(٥).

إذاً علم الفلك يثبت بالشواهد العلمية أن للكون بداية، وأنه خلق من العدم، وبهذا تكون الدراسات الفلكية قد أبطلت مزاعم الماديين الذين حاولوا إنكار قضية الخلق، وأيدت

---

(١) البقرة:١١٧.

(٢) الأنبياء:٣٠.

(٣) الذاريات:٤٧.

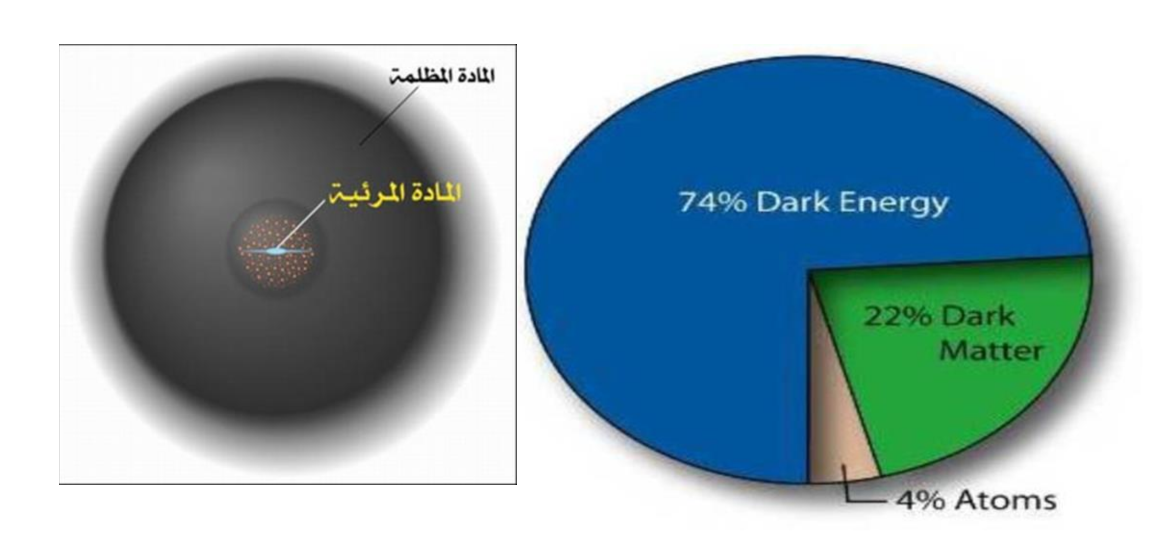
(٤) فصلت:١١.

(٥) الأنبياء:١٠٤.

الفريق الآخر الذي أقرَّ بخلق هذا الكون من العدم، وهي قضية آمن بها البشر بالفطرة السليمة، وسلَّم بها الموحدون على مرِّ العصور، إذ لا بد لهذا الخلق من خالق ابتدأ خلق الكون وهو الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(١).

ملاحظات واعتراضات:

١- لقد حددت النظرية عمر الكون بـ**١٣,٧** مليار سنة ضوئية وهذا التحديد وإن كان قائماً على دراسات فلكية إلّا أنها مقاييس بشرية يعتريها القصور والضعف، فمن الصعب الجزم المطلق بهذا الرقم؛ لا سيما وأنهم يقولون أن الذي تم معرفته من الكون هو بنسبة **٤%** والباقي هو الطاقة المظلمة، والمادة المظلمة، وهي غير معروفة لديهم وتشكل نسبة **٩٦%**،



وأما نحن المسلمون فنؤمن بأن الكون المخلوق أكبر بكثير من هذا الكون المشاهد، فهناك السماوات السبع التي زارها رسولنا ﷺ، وهناك عرش الرحمن، وكرسيه الذي وسع السموات والأرض، وكذلك القلم واللوح المحفوظ"(٢)، ويؤيد هذا الأمر أنَّ القرآن الكريم قد أخبرنا عن النجوم والكواكب التي يشاهدها الإنسان بأنها زينة السماء الدنيا،

---

(١) الزمر: ٦٢.

(٢) انظر: كتاب الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين أ.د. جعفر شيخ إدريس صـ٨٨.

وأحاديث النبي ﷺ التي تصف العرش والكرسي، قال صلى الله عليه وسلم: "**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**"(١)، وعن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**"(٢).

٢- إنَّ تحديد عمر الكون بـ ١٣,٧ مليار سنة، وعمر الأرض بـ ٤,٦ مليار سنة، يتعارض مع ما أخبرنا الله به في كتابه أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾(٣)، وورد ذكر الستة الأيام في سبعة مواضع في القرآن الكريم(٤)، وإذا كان اليوم الواحد للخلق هو ألف سنة من أيامنا كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾(٥)، فمعنى ذلك أن خلق السموات والأرض كان في ستة آلاف سنة، (٦×١٠٠٠=٦٠٠٠)، ولك أن تتخيل الفرق الشاسع بين هذا العدد وبين ثلاث عشرة مليار سنة، فإن قال معترضٌ إن خلق السموات والأرض هي مرحلة جزئية من مراحل خلق الكون قلنا له وما لدليل على

---

(١) السلسلة الصحيحة١/ ٢٢٣

(٢) سنن أبي داود،٢/٦٤٥، (صحيح) السلسلة الصحيحة،٢٨٢/١.

(٣) [الأعراف: ٥٤].

(٤) قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[هود: ٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾[ق: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد: ٤].

(٥)الحج: ٤٧.

تحديد الزمن الخاص بكل مرحلة؟!، لا سيما وأن ما قبل خلق السموات والأرض خلق العرش والكرسي والقلم والماء كما جاء في الأحاديث السابقة وغيرها في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ"(١)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"(٢)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ"(٣)، وهي نصوص تحتاج إلى دراسة وتدقيق وجمع وتوفيق فيما بينها، ثم تفسير الظواهر الكونية في ضوئها، حتى لا نخوض في أمور الغيب بغير علم.

٣- سميت النظرية بـ(**الانفجار العظيم**)، ويفضل البعض مصطلح (**الإنفتاق أو الفتق الكوني**) لأنه اللفظ الذي جاء به القرآن الكريم ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، بل إنَّ الأصح أن نسميه فتق السموات والأرض، لأنها جزء من الكون وليست كل الكون كما يتصور علماء الفلك، فالكون أعمّ، والسموات والأرض أخصّ، ولأن الانفجار يكون في العادة شيئاً مدمراً، أما الكون فمعروف بتوازنه وتناسقه وإحكامه.

٤- نقول لأصحاب نظرية الانفجار العظيم، أو الانفجار الكبير، -مجاراة على مصطلحهم- إذا كان الانفجار قد حدث بطريقة دقيقة كما تقولون، فإن القوة التي أحدثت هذا الانفجار وخططت له لن تكون إلاّ قوة عظيمة ما دامت قد أحدثت شيئاً عظيماً!، فلماذا إذاً لا تتساءلون عن ما قبل هذا الانفجار؟ وعن محدث الانفجار؟، وعن موجد هذا الكون العظيم، أفلا تعتقدون أن القوة التي أحدثت هذا الانفجار هي التي يجب أن تكون أزلية الوجود وسرمدية البقاء؟ قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

---

(١) صحيح البخاري، ٢٢ /٤٢٨.

(٢) سنن أبي داود، ٤/ ٢٢٥، قال الألباني: صحيح، وانظر: السلسلة الصحيحة- مختصرة، ١/٢٥٧.

(٣) صحيح مسلم، ١٣/١١٧.

الْخَالِقُونَ* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾(١)، تخاطب الفئة التي لازالت على الكفر بخطاب القرآن الكريم: ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

٥- إن تفاصيل النظرية عن المراحل التي مر بها الكون بعد الانفجار العظيم هي تفاصيلٌ لا يمكن الجزم بها(٣)، سيما والنظرية لم يقر بها كل علماء الفلك، فالخوض في هذه التفاصيل بغير دليل يقيني وجازم يعتبر خوض في الغيب الذي لم يشهده أحد من الخلق .. قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾(٤).

٦- إن الاستشهاد بهذه النظرية في مجال الإعجاز العلمي استشهاد غير سديد -في نظر الباحث-؛ إذ لا ينبغي ربط معاني الآيات القرآنية بنظريات علمية أو فرضيات قابلة للتغيير والتبديل ثم جعلها معجزة علمية من معجزات القرآن، لأن هذا المنهج يؤدي إلى إقحام النصوص الشرعية لتكون عرضة للنقد أو التصادم مع الاكتشافات العلمية مع مرور الزمن، والأصل في ذلك هو الاستفادة من هذه النظريات في باب التفسير العلمي

---

(١) [الطور: ٣٥، ٣٦].

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) مثلاً ما جاء بشأن هذه النظرية في بحث نشرته مجلة العلوم بقلم عدد من مشاهير علماء الكون، تقول المجلة: «في لحظة معينة قبل حوالي ١٥ بليون عام بدأت جميع المادة والطاقة التي يمكن أن نشاهدها اليوم، والتي تركزت في منطقة لا تزيد مساحتها على مساحة dime [عملة معدنية أمريكي قطرها حوالي سنتيمتر] بدأت تتمدد وتبرد بسرعة فائقة لا تصدق. وعندما انخفضت درجة الحرارة إلى ما يعادل ١٠٠ مليون مرة درجة حرارة لهب الشمس اكتسبت قوى الطبيعة للكون خواصها الحالية، وبدأت الجسيمات الأولية المعروفة باسم الكووركات تسبح بحرية في بحر من الطاقة، وعندما تمدد الكون بمقدار ١٠٠٠ مرة أخرى ملأت جميع المادة التي يمكننا قياسها منطقة بحجم المجموعة الشمسية، وفي ذلك الوقت حبست الكووركات الطليقة في نيوترونات وبروتونات، وبعد أن تمدد الكون بمقدار ١٠٠٠ ضعف مرة أخرى اتحدت البروتونات والنيوترونات لتكون النوى الذرية، ومنها معظم عنصري الهليوم والديتيريوم الموجودين اليوم، وحصل كل ذلك في الدقيقة الأولى من التمدد، إلا أن الظروف كانت ما زالت ساخنة إلى درجة لم تسمح للنوى الذرية باقتناص الإلكترونات، ولم تظهر الذرات المتعادلة بكمية كبيرة إلا باستمرار التمدد مدة ٣٠٠٠٠٠ سنة، وكان الكون أصغر من حجمه الحالي بمقدار ١٠٠٠ مرة، وحينئذ بدأت الذرات المتعادلة تندمج لتكون سحباً من الغاز الساخن المعتم الذي يحمل جسيمات، أي: الدخان الذي تطور في نهاية الأمر ليكون النجوم، وعندما توسع الكون بالمجرات الشابة، وعندما وصل الكون إلى نصف حجمه الحالي أنتجت التفاعلات النووية في النجوم معظم العناصر الثقيلة التي تشكلت منها الكواكب الأرضية، إن نظامنا الشمسي يعد شاباً نسبياً: لقد تشكل قبل خمسة بلايين سنة عندما كان الكون يبلغ ثلثي حجمه الحالي، وبمرور الزمن استهلك تكوين النجوم مخزون الغاز في المجرات، وهكذا تضاءل نمو عدد النجوم». [مجلة العلوم الأمريكية].

(٤) الكهف: ٥١.

للقرآن الكريم؛ وذلك في فهم معاني الآيات ومعرفة دلائلها كما استفاد الأئمة المفسرون قديماً من علوم ومعطيات عصرهم دون إفراط أو تفريط.

وخلاصة الأمر أن علم الكونيات استقر على هذه النظرية التي صمدت أمام جميع الاختبارات إلى وقتنا الحاضر، وحظيت بالقبول الواسع في تفسير بدء خلق الكون، ونفي أزليته وتقرير أنه حادث، فهي أقرب إلى ظاهر المعنى القرآني، وأقرب إلى تفسير النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وقد يأتي العلم بنظرية أكثر قرباً تعيننا على فهم تلك النصوص فنأخذ بها من باب التفسير العلمي للقرآن[(١)]، ولا ينبغي الأخذ بها في باب الإعجاز العلمي، وجعلها حجة على سبق القرآن الكريم، ما دامت نظرية قابلة للأخذ والرد.

والحمد لله رب العالمين

وصل اللهم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

إعداد:

رياض عيدروس عبد الله

٢٠٠٨م

مراجعة:

د. قسطاس إبراهيم النعيمي

***

(١) انظر: علم الإيمان للشيخ عبدالمجيد الزنداني، ٣/٢١١.